

Text and Receive in the Quranic Phenomenon of Malik Bin Nabi

النص و التلقي في الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي

د. حورية قادري

جامعة طاهري محمد، بشار، الجزائر

houria.kadri@yahoo.com

قبل للنشر في: 2018/04/28

قدم للنشر في: 2018/01/17

Abstract:

"The Qur'anic Phenomenon" is a book written by the Algerian thinker Malik Ben Nabi. Anyone who sees it sees it as an old, modern book, at the same time, in the sense that the subjects are old but discussed with modern thought and good opinion. Inherited by modern rational and logical mechanisms, taken by "Malik" to reveal the miracle of the Holy Quran. In this context, "Mahmoud Mohammed Shaker" This book of the phenomenon of Quran and enough, it is not fair that criticism of a book is presented itself to the reader, according to my brother Professor Malik bin Nabi and according to his book is referred to, and it is difficult to submit a book is a future approach, Like before"

Key words : Text; receiving the innate; receiving the scientific; receiving the spiritual, the miraculous text; Malik bin Nabi, the Qur'anic phenomenon.

الملخص :

"الظاهرة القرآنية" كتاب لصاحبه الأستاذ المفكر الجزائري "مالك بن نبي" ومن يطلع عليه يرى أنه كتاب قديم حديث، في الوقت ذاته، بمعنى أن المواضيع المطروحة قديمة غير أنها نوقشت بفكر حديث، ورأي سديد، يخاطب القارئ العربي في أيامنا هذه، ويكشف عن الموروث بآليات حديثة معقنة ومنطقية، اتخذها "مالك" ليكشف عن إعجاز القرآن الكريم. وفي هذا المقام يقول "محمود محمد شاكر" هذا كتاب الظاهرة القرآنية وكفى، فليس عدلاً أن نقد كتاباً هو يقدم نفسه على قارئه، وبحسب أخي الأستاذ مالك بن نبي وبحسب كتابه يشار إليه، وإنه لعسير أن أقدم كتاباً هو نهج مستقبل، أحسبه لم يسبقه كتاب مثله من قبل. "الظاهرة القرآنية" كتاب لصاحبه الأستاذ المفكر الجزائري "مالك بن نبي" ومن يطلع عليه يرى أنه كتاب قديم حديث، في الوقت ذاته، بمعنى أن المواضيع المطروحة قديمة غير أنها نوقشت بفكر حديث، ورأي سديد، يخاطب القارئ العربي في أيامنا هذه، ويكشف عن الموروث بآليات حديثة معقنة ومنطقية، اتخذها "مالك" ليكشف عن إعجاز القرآن الكريم. وفي هذا المقام يقول "محمود محمد شاكر" هذا كتاب الظاهرة القرآنية وكفى، فليس عدلاً أن نقد كتاباً هو يقدم نفسه على قارئه، وبحسب أخي الأستاذ مالك بن نبي وبحسب كتابه يشار إليه، وإنه لعسير أن أقدم كتاباً هو نهج مستقبل، أحسبه لم يسبقه كتاب مثله من قبل.

كلمات مفتاحية : النص؛ التلقي الفطري؛ التلقي العلمي؛ التلقي الروحي، النص المعجز؛ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية.

العرض:

عند قراءة كتاب "الظاهرة القرآنية"، يتضح أن مالك بن نبي قد اطلع على كتب السابقين من مفسري القرآن الكريم، ونقاد الأدب، وعلى فكر الفلاسفة والمفكرين الغربيين، الذين ساهموا بدورهم في البحث عن خبايا نص القرآن الكريم خاصة، والنص العربي عامة، من حيث هو بنية تحكمها علاقات ومن حيث هو مؤسسة اجتماعية حضارية.

ويتضح أيضاً أن 'مالك بن نبي' سعة من الثقافة الهادفة التي ألمَّ بها فكره، حيث استطاع أن يقدم قراءة فريدة من نوعها ولج بها التراث وجعل ينفخ من روحه ليعتته بحلّة قشبية تتماشى والفكر الإسلامي الحديث.

لقد تمكن 'مالك بن نبي' من مقارعة الحجة بالحجة، رداً على المغرضين والطاعنين والمشككين في العصر الحديث الذين استهدفوا 'القرآن الكريم' النص العربي النموذج، فشككوا في إعجازه، كما ألغوا النص الشعري الجاهلي مثل ما قام به المستشرق مرحليوث، الذي تأثر به عميد الأدب العربي طه حسين، وطعنوه في الظاهر لما له من علاقة وطيدة مع القرآني الكريم المنزه، هدفهم من وراء ذلك المساس بالعقيدة وضرب الإسلام وتضليل الفكر الإسلامي.

كما جاء كتاب 'الظاهرة القرآنية' حاملاً قيماً ومبادئ باستطاعتها النيل من تلك الدسائس المغرضة، التي حيكت ضد القرآن الكريم، لذا اتخذ العقل سلاحاً، والعلم وسيلة، دفاعاً عن الغاية المنشودة. وهي كتاب الله وسنة رسوله. وغايته هي البحث عن المصدر الحقيقي للقرآن الكريم وكما يمكننا طرح التساؤل الموالي: هل للقرآن علاقة بالمعرفة الإنسانية أم هو كلام الله الذي " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " ؟

لقد تجاوز القرآن الكريم طاقة البشر فعجزوا على الإتيان بمثله، وذلك ورد على وجه صريح في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾¹.

ومن هذا المنطلق أسس 'مالك بن نبي' منهجه عند تأليفه لكتاب الظاهرة القرآنية حسب رأي 'محمود محمد شاكر' دال أوضح الدلالة على أنه إنما «عني بإثبات صحة دليل النبوة، وبصدق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله، وأنه كلام الله لا كلام البشر وليس هذا هو (عجاز القرآن)، بل هو أقرب إلى أن يكون باباً من (علم التوحيد) استطاع مالك أن يبلغ فيه غايات بعيدة، قصر عنها أكثر من كتب من المحدثين وعن المحدثين فجراه الله عن كتابه ونيته أحسن الجزاء»².

فكان همُّ 'مالك بن نبي' الأكبر هو إثبات استقلالية القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم، يعني إثبات دليل النبوة، وتصديق دليل الوحي، وأن القرآن تنزيل من عند الله، وبذلك يتمكن من إثبات إعجاز القرآن، وهو يكرر عبارة إعجاز القرآن في أكثر من موضع في مؤلفه هذا.

1- التلقي وفاعلية التأثير:

أشار 'مالك بن نبي' في كتابه " الظاهرة القرآنية " إلى أنواع للتلقي هي :

التلقي الفطري، والتلقي العلمي، والتلقي الروحي.

التلقي الفطري³ : ويقصد به ذلك التلقي الذي استمدته متذوق نص القرآن الكريم بالفطرة التي فطر عليها، حيث كان الإنسان العربي سليقياً مدركاً لحبايا لغته وله المقدرة على التمييز بين جيد الكلام و رديئه، ذوّاقاً لبيان الشعر والنثر معاً، وكان الشعر الجاهلي قد وصل ذروة بيانه، وبهاء صناعته، لكن سرعان ما ظهر نص أذهل الجميع وأعجزهم وتحداهم على أن يأتوا بمثله، فقرؤوه بألية الحس الفطري التي يمتلكونها، وصار هذا النص الجديد حديث الساعة، تتداركه القوم فمنهم من أسلم وآمن به 'وحيّاً منزلاً' من عند الله تعالى .

ومنهم من عرف حقيقة إعجازه لكن العزة بالكفر وأنانية الجاهلية أعمت أعينهم فلم يبصروا حقيقة الإيمان وحلاوته.

¹ - الإسرائ : 88

² - الظاهرة القرآنية ، د : مالك بن نبي ، تر : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر الجزائر ، دار الفكر دمشق ، ط : 4 : ص : 26 .

³ - ينظر الظاهرة القرآنية : ص : 62 .

ولقد أورد 'مالك بن نبي' مثالين عن كل فئة، فهذا الوليد بن المغيرة أحد العارفين باللغة العربية : نظمها، ونشرها وسجع كهاتها، والقصة المذكورة في الفصل الأول من هذا البحث ولكن لا ضير أن نذكر بأهم موقف فيها . لقد أعجب الوليد بما سمع من القرآن الكريم، وأقر بتفرد هذا الكلام واستبعد أن يكون فيه من الشعر أو سجع الكهان، وأنه لم يسمع مثله في كلام العرب، ولكن عزة الجاهلية حملته على أن يجحد بهذا الإعجاز الذي امتلك نفسه من داخلها و لم يلبث حتى قال: بأن هذا الكلام أقرب القول هو قول بشر و إنه لسحر يؤثر.

إلا أن الأمر نفسه يختلف عما حدث لعمر بن الخطاب عندما سمع أخته تتلو آيات بينات من الذكر الحكيم، وبعد أن اضطلع على الصحيفة التي كانت بيدها بعد أن ائمال عليها ضرباً، تلقى الخطاب القرآني بسليقته الصافية كما تعود أن يتلقى الشعر ويتذوقه وغيره مما يسمع من أفواه العرب، ولكن الأمر هذه المرة مختلف، فدهش الرجل، وأحس بشيء يهز كيانه ووجدانه، واقشعر جلده، فخشع قلبه لما سمع القرآن ثم قرأه، ولان قلبه فسكنه الإسلام وكان عمر قوياً في الجاهلية قوياً في الإسلام فهذا التعامل مع النص انبثق عن تلقٍ انطباعي، وذوق فطري بسيط لا تعليل فيه.

ب- التلقي العلمي:

ويقصد 'مالك بن نبي' من ورائه ذلك التلقي الواعي بخصوصيات اللغة المقننة والتي أحاط بها التقعيد وأصبحت لغة مطوقة

بالأحكام النحوية والقوانين البلاغية، بحيث أصبح ينظر إلى النص القرآني بنظرة مخالفة لتلك التي كانت تعتمد على الذوق لا غير، وصارت قراءة النص تحمل نفحة عملية والسبب في ذلك تقدم الزمن، وتغير الظروف الاجتماعية، وازدهار العلوم وبات الإعجاز القرآني موضوع دراسة قائماً بذاته « فكتب فيه أئمة من أمثال الجاحظ في كتابه 'نظم القرآن' وعبد القاهر الجرجاني صاحب 'دلائل الإعجاز' ومن هذا الأخير نستعير نبذة لتوضيح المقام والمقال، نستعيرها على سبيل المثال»⁴. ثم يذكر تعليق الجرجاني حول قوله تعالى: ﴿...﴾⁵

كما أورد 'مالك بن نبي' موجزا له يقول فيه - الجرجاني-: «إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من طريق العلم بالنظم والوقوف على حقيقة»⁶.

وبعد ذلك يدلي 'مالك بن نبي' برأيه حول هاتين الطريقتين في التلقي . الفطري والعلمي وهو بأنه عاجز على إدراك الإعجاز على هذين الوجهين، ولعل اتجاه مالك العلمي وثقافته الأجنبية منعا من استيعاب أو ممارسة تحليل النص القرآني بالطريقتين: اللغوية، والبلاغية لإثبات الإعجاز البياني في القرآن، ويُقر بذلك في تصريح يقول فيه: «وإنما أوردته فقط لأبين

⁴ - الظاهرة القرآنية : ص : 62

⁵ - سورة مريم : 4 .

⁶ - الظاهرة القرآنية : ص : 63 .

مباشرة عجزني عن إدراك 'الإعجاز' من هذا الوجه أي بوسائل التذوق العلمي بعد أن اعترفت بعجزني عن إدراكه من طريق الذوق الفطري، وهكذا أراني حيران فاقد الحيلة والوسيلة قضية هي أمس القضايا بالنسبة لي بصفتي مسلماً وهنا تواجهنا مشكلة (الإعجاز) في صورتها الجديدة بالنسبة لهذا المسلم، أعني بالنسبة لأغلبية المسلمين المثقفين ثقافة أجنبية، بل ربما بالنسبة لذوي الثقافة التقليدية، في ظروفهم الثقافية والنفسية الخاصة، فلا بد إذن من إعادة النظر في القضية في نطاق الظروف الجديدة التي يمر بها المسلم اليوم، مع الضرورات التي يواجهها في مجال العقيدة و الروح ⁷.

ج- التلقي الروحي:

ومن خلال اعترافه السالف الذكر، يرفع مالك بن نبي الستار ليتجلى ما يجول في خاطره، و يحز في نفسه نحو واقع الفكر الإسلامي، فيرغب في الكشف عن وجه آخر من وجوه الإعجاز القرآني، وذلك بواسطة التلقي الروحي أو التلقي النفسي إن صح التعبير. إن الأمر يتعلق هاهنا بتلقي النص القرآني، وآليات هذا التلقي، وربط ذلك بثقافة المتلقي سواء أكانت حديثة أو تقليدية وبالسياق الثقافي والظرف النفسي والعقيدة والروح .

2- النص المعجز عند مالك بن نبي :

وبعد أن عرض 'مالك بن نبي' طرق التلقي السالفة الذكر الفطري والعلمي ينتقل بعدها ليبين حقيقة إعجاز النص القرآني في نظره « فالمشكلة بوضعها الراهن إذن تتجاوز الأدب والتاريخ وتهتم مباشرة منهج التفسير القديم كله، ذلك المنهج القائم على الموازنة الأسلوبية معتمداً على الشعر الجاهلي بوصفه حقيقة لا تقبل الجدل» ⁸.

لذا يستبعد 'مالك بن نبي' طريقة الموازنة الأسلوبية كالتالي قام بما القدماء وكما فعل الباقلاني حيث كانت الموازنة تتم بين نصين الأول من القرآن الكريم، والثاني نص شعري بمعنى أن النص الأول: إلهي، والثاني بشري، وهو يرى « أن إعجاز القرآن قام حتى الآن على البرهان الظاهر على سمو كلام الله فوق كلام البشر و كان لجوء التفسير إلى الدراسة الأسلوبية لكي يضع لإعجاز القرآن أساساً عقلياً ضرورياً» ⁹.

ولعل 'مالك بن نبي' يقصد من وراء موقفه هذا أن القدماء اعتنوا بالتركيب، والألفاظ وكيفية نظمها في نص القرآن الكريم، لذا ذكر عبارة " أساساً عقلياً " أي أن هذه الدراسة اعتمدت على المنطق وعلم التراكيب والنحو لإثبات إعجاز القرآن. وأن الموازنة التي قام بها هؤلاء القدماء ليست سبيلاً كافياً لإثبات إعجاز القرآن الكريم.

⁷ - الظاهرة القرآنية : ص : 63 .

⁸ - الظاهرة القرآنية: ص : 57 .

⁹ - م . ن . ص . ن .

وتجدر الملاحظة في هذا الصدد بأن الموازنة النصية عند الباقلاني في إعجاز القرآن كانت محاولة فريدة من نوعها و طريقة في نفس الوقت تمثلت في دراسة لجزء كبير من قصيدتين، إحداهما معلقة امرئ القيس، والثانية للبحرّي ولكي نقدر هذه المحاولة حق تقديرها في فهم نظام « النص لا بد من البحث في دواعيها وأسباب اختيار القصيدتين والمنهج الذي اتبعه المؤلف وأخيراً النتائج التي توصل إليها»¹⁰.

ويتوضح رأيه في شعر امرئ القيس بقوله: « إن الكلام في أن شعر امرئ القيس وهو كبيرهم الذي يقرون بتقدمه وشيخهم الذي يعترفون بفضله وقائدهم الذي يأتمون به، وإمامهم الذي يرجعون إليه . كيف سبيله، وكيف طريق منزلته عن منزلة نظم القرآن، وأنه يخلط بشعره غبار ذلك النظم »¹¹.

ثم ضيف محمد مندور رأياً للباقلاني قائلاً: « لهذا تناول الباقلاني الشعر بالنقد ليحرحه، فيظهر بذلك أن القرآن أبلغ وأفصح، وأبدع منه وتلك هي الخطة العامة للباقلاني والذي لا يدل على إعجاز القرآن في ذاته قد تدليله على ذلك بتسفيه ما عداه من قول»¹².

وعلى الرغم من أن 'مالك بن نبي' يُعيب طريقة الموازنة الأسلوبية، إلا أننا نجد أنه قد اعتمدها كما يثبت نزاهة الذات المحمدية من أن يكون لها أدنى دخل في تأليف الوحي؛ فراح يُدكّرُ بأمية الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم جهلله الأديان السماوية الأخرى وكذلك عدم تنقله عبر العالم، فهو لم يتعدّ الجزيرة العربية، و بالأحرى لم يتخطّ البحر الأحمر أو البحر الأبيض المتوسط، فراح مالك يوازن بين الحديث النبوي الشريف، الذي هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم، بأسلوبه الخاص، وبين قول الله تعالى الذي لا يدخل للنبي في نظمه وتأليفه، وهذه طريقة جديدة جاء بها مالك، ليثبت أن كلام الله ليس له مثل في كلام البشر فالعجز بدأ من الرسول الذي أمر بتبليغ الرسالة إلى الناس أجمعين وبوصفه المتلقي الأول لهذه الرسالة السماوية .

ويرى 'مالك بن نبي' الإعجاز من نواح ثلاث: حجة الدين، وحجة الإسلام، وتاريخ الأديان، ثم ذكر بعض الآيات التي ورد فيها التحدي، ثم يشرع في شرح مفصل لمظاهر الإعجاز القرآني في نظره هو :

1- بالنسبة إلى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم: الحجة التي يقدمها لخصومه ليعجزهم بها.

2- بالنسبة إلى الدين: وسيلة من وسائل تبليغه ومن هذين المعنيين يقدم مالك بن نبي مفهوم الإعجاز واصفا إياه:

¹⁰ - مفهوم الأدبية في التراث النقدي ، توفيق الزبيدي، 1985، سرار للنشر، تونس، ص: 159.

¹¹ - إعجاز القرآن : ص : 254

¹² - ينظر النقد المنهجي عند العرب، ومنهج البحث في الأدب واللغة ، محمد مندور، 1996، نهضة مصر، ص: 380.

أولاً: أن الإعجاز بوصفه (حجة) لا بد أن يكون في مستوى إدراك الجميع وإلاّ فأتت فائدته، إذ لا قيمة منطقية لحجة تكون فوق إدراك الخصم فهو ينكرها عن حسن نية أحياناً.

ثانياً: و من حيث كونه وسيلة لتبليغ دين: أن يكون فوق طاقة الجميع.

ثالثاً: و من حيث الزمن أن يكون تأثيره يقدر ما في تبليغ الدين من حاجة إليه¹³.

ومن خلال هذه الصفات الثلاث تختلف ضرورة التبليغ. كما نستشف من هذه الصفات أن الإعجاز في نظر مالك يكمن في العملية التواصلية فالحجة حتى تكون كافية، يجب أن تتساير مع جميع مستويات المتلقين بما فيهم المعارضين أي الكفار والمشركين ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء ليخاطب جميع فئات البشر، العرب منهم و الأعاجم .

أما الثانية: فإن الإعجاز عنده هو وسيلة يتمثل في أنه يستحوذ على الأداة الفاعلة في عملية التلقي لأن القرآن دين، ووجب على الرسول الدعوة إليه، وكذلك هو دور الدعاة من بعده، بمعنى أنه رسالة، والرسالة لا بد لها من تبليغ. كما أن هذه الرسالة صدرت من أعلى إلى أدنى فأوجب ذلك أن تكون فوق طاقة البشر بما فيهم الرسول نفسه.

والثالثة: فالإعجاز عند 'مالك بن نبي' يتصف بصفة الديمومة والاستمرارية من حيث الزمن، وأن يكون تأثيره بقدر الحاجة إلى تبليغ الدين، وما دام القرآن هو آخر الرسالات السماوية أمكنه أن يتصف بهذه الصفة فسيبقى معجزاً وفوق طاقة البشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها» وعليه يجب أن يكون (إعجاز) القرآن صفة ملازمة له عبر العصور والأجيال، وهي صفة يدركها العربي في الجاهلية بدوقه الفطري كعمر رضي الله تعالى عنه، أو الوليد، أو يدركها بالتذوق العلمي كما فعل الجاحظ في منهجه الذي رسمه لمن جاء بعده، ولكن المسلم اليوم قد فقد فطرة العربي الجاهلي وإمكانات عالم اللغة في العصر العباسي، وعلى

الرغم من هذا فإن القرآن الكريم لم يفقد بذلك جانب الإعجاز لأنه ليس من توابعه بل من جوهره، وإنما أصبح المسلم مضطراً إلى أن يتناوله في صورة أخرى و بوسائل أخرى، فهو يتناول الآية من جهة تركيبها النفسي الموضوعي أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة، فيطبق في دراسة مضمونها طرقاً للتحليل الباطن»¹⁴.

وعلى هذا الأساس تتغير نظرة المسلم إلى الإعجاز القرآني بحسب معطيات ومتطلبات العصر الذي يعيش فيه، فطرائق التلقي تختلف كذلك، ونظراً لعدم تمكن مسل اليوم لا يمتلك ناصية اللغة التي اتصف بها العرب في جاهليتهم ، وعلوم البلاغة التي جاء بها الجاحظ وغيره من علماء البلاغة العربية، ولا منزلة علماء اللغة في العصر العباسي، ووجب أن تتغير المقاييس لإدراك إعجاز القرآن الكريم وهو الذي يستحوذ على صفة الديمومة والاستمرارية بلا منازع وفي كل زمان ومكان.

¹³ - الظاهرة القرآنية : ص : 64 . 65 .

¹⁴ - الظاهرة القرآنية : ص : 67 .

يحدد 'مالك بن نبي' 'مالك بن نبي' الإعجاز في القرآن الكريم بالنظر إلى مفهوم الإعجاز في الأديان عامة «فأما حين نريد تحديد هذا المصطلح في حدود التاريخ أي في تطور إدراك البشر (حجة) الدين وإدراك المسلم ل(حجة) الإسلام خاصة فلا بد من مراجعة القضية في ضوء تاريخ الأديان»¹⁵.

3- الصورة الأدبية و المجاز في القرآن الكريم:

ويرى 'مالك بن نبي' أن القرآن الكريم أكمل نموذج أدبي استطاعت اللغة أن تفصح عنه لأن ليس به أدنى اختلال، بل أن الاتساق البديع شامل لجميع نواحيه، لذا هو يشتمل على أسلوب معجز، فإن «عبقرية لغة ما مرتبطة بما تهبه الأرض الخصبة فطبيعة المكان والسماء والمناخ والحيوان والنبات، هذه كلها خلاقة للأفكار والصور التي تُعدُّ تراثاً خاصاً بلغة دون أخرى وهكذا تضع الأرض طابعها على أدوات البلاغة التي يستخدمها شعب ما كي يعبر عن عبقريته؛ وبالتالي فإن النقد الذاتي لأي أدب يجب أن يكشف في هذا الأدب إلى حد ما عن علاقته بعناصر التربة التي ولد فيها»¹⁶.

ومن هاهنا يؤكد 'مالك بن نبي' على أن المجاز - وهو يقصد به أحيانا الأسلوب - مرتبط ارتباطاً وثيقاً بجغرافيا المكان وظروف الزمان التي تحيط بالنص، وأن أدوات البلاغة تأتي متأثرة بهذه الطبيعة، مما يلزم المحلل للنص أن يراعي هذه الظروف، ويربط النص بمحيطه ولعل «المزاج هو العنصر البلاغي الفريد الذي يحدد معالم الأسلوب ويحدد بصورة ما موقعه الجغرافي، وعندما وصف امرؤ القيس فرسه قال بيته المشهور:

مَكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَاً كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ مِنْ عِلٍّ¹⁷

ويضيف 'مالك بن نبي' قائلاً «البيت عربي، في جوهره، لأن الوسط الذي يمثل فيه وسط عربي طبعه بطابعه الخاص، ولكن المجاز القرآني ليس دائماً ولا غالباً انعكاس للحياة البدوية في الصحراء فهو يستمد - على عكس ذلك - عناصره وألفاظه تشبيهاته من بيئات وجواء ومشاهد جد مختلفة»¹⁸.

ومعنى ذلك أن بيت امرئ القيس جاء عاكساً لحياته البدوية الصحراوية، وجاءت التصاویر معبرة عن بيئته، يتضح ذلك من خلال التشبيهات التي اتخذها لوصف جواده، ولا يكتف مالك بن نبي ببيت امرئ القيس بل يضرب الأمثلة من القرآن الكريم والتي ذكر الله سبحانه فيها بيئات مختلفة، فتارة يصف طبيعة خلافة، وحضرة كثيفة وينابيع متدفقة، كما هو الحال على ضفاف النيل أو بلاد الرافدين، وتارة أخرى يصف مشاهد ليست في الطبيعة الواحدة، كما في أرض الهند أو بلاد الغال.

¹⁵ - الظاهرة القرآنية : ص : 59-60 .

¹⁶ - م . ن : ص : 294 .

¹⁷ - م . ن . ص . ن .

¹⁸ - الظاهرة القرآنية : ص : 294 .

ثم يضيف « ليس من خطة هذا الكتاب أن ندرس المجاز القرآني بل أن نبين فقط أهميته في دراسة 'الظاهرة القرآنية' من وجهة نظر نقدية»¹⁹.

ولذلك قدم للقارئ مثالين مقتبسين من سورة النور يوضحان هذه الأهمية: في قول الله تعالى: ﴿لَمَّا مَكَرُوا مَكْرًا وَسَوَّغُوا ذُنُوبًا كَبِيرًا﴾²⁰.

ويقدم 'مالك بن نبي' تعليقاً حول هذه الآية فيقول: « ففي هذه الصورة الأخاذة يتحلى سطح الصحراء العربية المنبسط والخذاع الوهمي للسراب؛ فنحن هنا أمام عناصر مجاز عربي النوع، فأرض الصحراء وسمائها قد طبعا عليه انعكاسها، فليس ما نلاحظ مما يتصل بالظاهرة القرآنية التي تشغلنا سوى ما نجده في الآية من بلاغه»²¹.

و يمكن القول بأن 'مالك بن نبي' يربط النص بمؤلفه وكذلك بالظروف المحيطة به كما هو الحال في النصوص البشرية، أو إلى أسباب النزول عند تفسير القرآن الكريم؛ أي أنه قرأ النص من خارجه ولم يقرأه من داخله، ولقد اعترف سابقاً بأنه عاجز على أن يلج النص من داخله نظراً لعدم ناصية اللغة العربية وهذا حال كل المتلقين مثله، والذين تتقفوا بالثقافة الأجنبية. بمعنى أنه وجب على متلقي نص القرآن الكريم امتلاك ناصية اللغة العربية ومعرفة القواعد النحوية والبلاغية، كما لا ينسى هذا القارئ أن يدرس النص من خارجه حتى تكتمل دراسة النص وتتم عملية التلقي على أحسن وجه .

ثم يُدكّر بقول الله تعالى: ﴿لَمَّا مَكَرُوا مَكْرًا وَسَوَّغُوا ذُنُوبًا كَبِيرًا﴾²².

وفي هذا الصدد يقول 'مالك بن نبي': « فهذا المجاز يترجم على عكس سابقه عن صورة لا علاقة لها بالوسط الجغرافي للقرآن بل لا علاقة لها بالمستوى العقلي أو المعارف البحرية في العصر الجاهلي وإنما هي في مجموعها منتزعة من بعض البلدان الشمالية التي يلفها الضباب... في الدنيا الجديدة أو في (إيسلندا) امتصاص الضوء ومن هنا لا نستطيع أن ننسب هذا المجاز إلى ذات إنسانية صاغتها بيئة قارية»²³.

19 - م . ن : ص : 295 .

20 - سورة النور : 39 .

21 - الظاهرة القرآنية : ص : 195 .

22 - سورة النور : 40 .

23 - الظاهرة القرآنية: 297 .

ومما سبق يجزم 'مالك بن نبي' أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤلف الآيات القرآنية، ولم يكن له دخل في تركيبها، بل هي "كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه"، ودلّل على ذلك من البيئة التي نشأ فيها النبي الكريم، ولأنه أمي لا معرفة له بالكثافة، وانكسار الضوء وانعكاسه، وغيرها من القوانين الفيزيائية.

وصفوة القول أن 'مالك بن نبي' مفكر ذو عقلية فذة، ومما لا شك فيه هو أن الرجل أراد أن يخدم العقيدة الإسلامية، ويرسخ مبادئ التوحيد كما جاء بها القرآن الكريم، ولقد تحسس مواطن الإعجاز في القرآن الكريم، وكان واضحا من تحليله ومن خلال الأمثلة التي أوردها بأنه رجل واسع الثقافة غيور على دينه، متفتح على الحضارات العالمية والإسلامية بخاصة.

وعلى الرغم من ثقافته الأجنبية إلا أنه أبقى على الأصل أن يكتب مؤلفه هذا، بعد أن رأى ما رآه من واقع الشباب المسلم في البلاد غير العربية، بعدهم عن اللغة العربية هذا يعني عدم استحابتهم للإعجاز البياني في القرآن الكريم، فانتهج منهجاً علمياً - لمعرفة النص وأثره في نفسية المتلقي - تغلب عليه سمة الموضوعية.

وعلى الرغم من ذلك وجد 'مالك بن نبي' نفسه يوازن بين كلام البشر وكلام الله تعالى، كاشفاً بذلك عن التمايز والتفاوت بين النصين من حيث مجاز وأسلوب القرآن، وهنا نستشف بأنه يسير وفق خطى القدماء أمثال أبي بكر الباقلاني .

- إن الموازنة الأولى التي قام بها 'مالك بن نبي' كانت بين كلام الله سبحانه وتعالى - القرآن الكريم - و قول الرسول صلى الله عليه و سلم - أي بين نص الحديث الشريف - ويقصد من وراء ذلك أن القرآن الكريم ليس من تأليف النبي صلوات الله عليه.

- أما الموازنة الثانية التي أجراها 'مالك بن نبي' فكانت بين نص شعري وتمثل في بيت لامرئ القيس، وبين آيتين من سورة النور، مقارنا بذلك بين المجاز القرآني والمجاز الشعري .

- وأما الثالثة: فوازن بين قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم، وقصة آرميا الكتابية.

كما أن تأثر مالك بن نبي بكتب الإعجاز عند القدماء كان جلياً عندما خص فصلاً فأسماه 'الصورة الأدبية في القرآن' وراح يتحدث عن فواتح السور، والإيقاع الموسيقي للنص، ثم جزء القرآن الكريم إلى سور، و السور إلى آيات. على الرغم من أنه اعترف بقول صريح منه بأنه لا يمتلك القدرة على أن يكون صاحب ذوق فطري، ولا ذوق علمي، و يقصد بهذا الأخير علم اللغة.